ذكريات المعلم المقدسي فؤاد أسعد "أبو السعود"[1]

سميح حمّودة*

تعرض هذه المقالة لكتاب "مذكرات معلِّم"، وهو كتاب ذكريات لمعلم مقدسي قضى جلّ حياته في سلك التعليم، والكتاب غير مشهور بين الباحثين في التاريخ الفلسطيني، إذ إنّ صاحبه لم يكن سياسياً ذا دورٍ في الحركة الوطنية الفلسطينية، كما لم يكن تربوياً بارزاً من طبقة خليل السكاكيني أو أحمد سامح الخالدي، ويبدو أيضاً أنّ الكتاب وزِّع على نطاقٍ محدود، وقد نشر بالعام ١٩٧٦ على وجه التقدير،[2] وقد جاء الكتاب في ٢٩٢ صفحة من القطع الصغير، وطبع نصه على الآلة الكاتبة، وهو يدور أساساً حول ذكريات الكاتب المتعلقة بحياته في القدس خلال العهد العثماني الأخير تلميذاً وشاباً، ثمّ بعمله معلماً في فلسطين خلال العهدين البريطاني والأردني، مدة أربع وثلاثين سنة، وقد أهداه مؤلفه "إلى الزملاء المعلمين."

تتسم لغة الكتاب بالبساطة، وتخلو من البلاغة والعناية اللفظية، بل جاءت عاميّة وركيكة في مواضع كثيرة، كما يحوي النص عدداً لا بأس به من الأخطاء المطبعية واللغوية.[3] ويبدو أن الكاتب كان قد كتبه من الذاكرة في فترةٍ قصيرة ولم تتم مراجعته وتحريره قبل نشره. وعلى الرغم من ذلك فإنّ الكتاب من كتب الذكريات الشخصية الهامّة التي تضيف جديداً لمعرفتنا بالتاريخ السياسي والاجتماعي والثقافي وبطبيعة الحياة في فلسطين عموماً، ومنطقة القدس خصوصاً، فالكاتب يسرد حوادث شخصية وعامّة عايشها خلال العهد العثماني المتأخر، وخصوصاً في سنوات الحرب العالمية الأولى، والتي يطلق عليها سنوات السفربرلك[4]، وخلال عهد الانتداب البريطاني، والتي حظيت بأوسع تغطية، وأيضاً خلال فترة الحكم الأردني، كما يوجد تسجيلٌ لبعض الحوادث في عهد الاحتلال الإسرائيلي بعد حرب ١٩٦٧. وتكمن أهمية الكتاب في عدة أمور:

- يمثل الكتاب، كونه شهادة شخصية ذاتية، كتبها صاحبها بصورة طوعية، دون تأثيرٍ أو طلبٍ من أحد، مصدراً مفيداً ضمن سلسلة مصادر المذكرات والذكريات المتعلقة بالتأريخ لفلسطين خلال العهود الأخيرة. وعلى الرغم من أن الكتاب يضم العديد من القصص والعبارات التي تحوي تمجيداً واضحاً للذات، وبصورةٍ مبالغ فيها أحياناً كثيرة، إلاّ أنّه يخلو من تمجيد أشخاص مشهورين، كما يخلو في الغالب من ذمٍّ آخرين ممنْ لم يكونوا على توافق مع الكاتب في ميوله وآرائه، فباستثناء موضع أشار فيه الكاتب إلى سوء تصرفات بعض المفتشين التربويين في فترة الانتداب البريطاني، وموضع آخر أشار فيه إلى احتلال عائلته موقعاً أعلى من عائلة النشاشيبي، يتسم الكتاب إجمالاً بموضوعية التقويم وبالبعد عن التعصب العائلي والسياسي.
- للكتاب فائدة خاصّة كونه يدور في الغالب الأعم حول أوضاع التعليم والمدارس في العهود العثمانية، حيث كان الكاتب تلميذاً فطالباً في دار المعلمين،

١ كنت قد قرأت نسخةً من الكتاب لأول مرة عام ١٩٩٠، وكانت محفوظة في مكتبة جمعية الدراسات العربية بالقدس، وسجلت ملاحظات حولها، بيد أن هذه الملاحظات لم تكن كافية للكتابة عنه، وقد بحثت عن نسخةٍ أخرى في مكتباتٍ عديدة فلم أعثر عليها، لكنني وجدت ضالتي عند السيد عزام توفيق «أبو السعود» والذي زودني بنسخة من الكتاب، فله مني جزيل الشكر، ووالد السيد عزام، التربوي الفلسطيني المعروف توفيق «أبو السعود»، هو ابن عم الكاتب فؤاد «أبو السعود».

٢ يخلو الكتاب من ذكر تاريخ أو مكان النشر، رغم أنه نشر في القدس قطعاً، وقد قدرنا تاريخ نشر الكتاب من بعض القصص التي أوردها المؤلف وذكر كم مضى عليها من السنين.

٣ صححنا هذه الأخطاء عند الاقتباس من الكتاب.

٤ السفربرلك كلمة تركية تعني النفير العام للحرب.

* دائرة العلوم السياسية - جامعة بيرزيت، وعضو هيئة تحرير حوليات القدس.

والبريطانية والأردنية المتعاقبة، حيث عمل خلال هذين العهدين معلماً في مدارس مختلفة. وهذا الموضوع لم يحظ بالكثير من الدراسات، كما لم ينشر حوله شيءٌ يذكر مقارنةً بما نشر حول الشأن السياسي والتاريخ الاجتماعي.

- ينقل الكتاب صوراً شتّى حول الأحوال المعيشية في فلسطين، وخصوصاً في القدس وفي قرى لفتا وسلوان وخان يونس، ويزودنا بمعلومات مفيدة حول الناس العاديين، وطرق تفكيرهم، ومشاكلهم وهمومهم، فهو يضيء جوانب من تاريخٍ مهمل ومهمَّش.
- بالإضافة لما سبق يعطينا الكاتب صوراً ومعلوماتٍ عن أعضاءٍ من النخبة الفلسطينية وعن علاقاتهم البينية، وهذه الصور والمعلومات لم يدوّن عنها الكثير في السجِّل التاريخي، ربما لهامشية أدوار أصحابها السياسية.
- يعكس الكتاب صوراً ذهنيةً (mental images) لمتعلّمٍ فلسطيني عن الإنجليز واليهود. ومع التسليم بأنَّ هذه التصورات خاصة بالكاتب، إلاّ أنّها على ما يتضح من مصادر أخرى كانت منتشرة في المجتمع الفلسطيني.

المعلّم فؤاد «أبو السعود». كما نشرت صورته على الغلاف الخلفي لكتابه الصادر عام ١٩٧٦.

لقد دوّن فؤاد أسعد "أبو السعود"، وقائع وأحداثاً كثيرة وثرية عاصرها وعايشها في حياته، ورواها في هذا الكتاب بأسلوبٍ سردي قصصي دون العودة لأية نصوص يومية سابقة، بل جاء الكتاب بأكمله على شكل مجموعة من الذكريات، ورغم تأكيد الكاتب بأن الحوادث التي يرويها حقيقية مئة بالمئة[٥]، إلاّ أنّ هناك مواضع عديدة تتضمن مبالغات واضحة، كما لا يخلو الكتاب من الالتباس في ترتيب الأحداث الزمنية، إذ هناك العديد من الأخطاء في تسلسل الأحداث، وهذه أمور سنشير إليها في موضعها.

فؤاد "أبو السعود": سيرة موجزة

حسب ترجمة ذاتية قصيرة لحياته، أوردها الكاتب على الصفحة الخارجية للغلاف الأخير من الكتاب، وحسب الروايات الواردة في الكتاب فقد ولد فؤاد عام ١٨٩٩م في مدينة القدس في عائلة "أبو السعود"، وهي عائلةٌ مقدسية عريقة، عرفت بالعلم والتصوف وكان منها علماء مشاهير[٦] خدموا في الدولة العثمانية، وقد تولت العائلة "الزاوية الفخرية،"[٧] المجاورة للحرم الشريف، والمعروفة أيضاً ب"زاوية "أبو السعود"" وأشرفت على شؤونها وعلى إدارة أوقافها. وحسب الكاتب، فقد كان أبوه مؤذناً في المسجد الأقصى في العهد العثماني، وتشير المصادر التاريخية إلى أنّ أفراداً عديدين من العائلة تولّوا منصب مفتي الشافعية في القدس، فكان منهم الشيخ طاهر "أبو السعود"، والذي توفي في مطلع العشرينيات من

٥ أنظر الصفحة الأولى من المقدمة وصفحة ١١٢.

٦ ومن أبرزهم شيخ الإسلام أبو السعود أفندي، وهو الذي اعترض على السلطان سليمان القانوني في مسألة إعفاء تجار من بدل الكراء في أرض وقفية قائلاً: «إن الإعفاء من أمور كبدائل الأجرة بفرمان السلطان لا يجوز لأن الحرام لا يتصير حلالاً بأمره. فالحرام لا يستحل. هذا أمر الشرع الشريف في هذا الخصوص. وما سواه ليس منه. ومن وقف على أحكام شرعية فكتمها فالقرآن الكريم يتوعده».
أنظر: http://www.wata.cc/forums/showthread، ويورد عادل منّاع في كتابه **أعلام فلسطين في أواخر العهد العثماني (١٨٠٠-١٩١٨)**، (مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٩٧، ص ٢٥-٣٠) تراجم لحياة أربعةٍ من آل «أبو السعود»: محمد أفندي (١٧٣٥-١٨١٣)، أحمد أفندي (توفي في النصف الأول من القرن التاسع عشر)، ومحمد تاج الدين (توفي ١٨٥٠)، وطاهر «أبو السعود» (توفي سنة ١٩٢١)، وجميعهم باستثناء محمد تاج الدين تولّوا منصب مفتي الشافعية بالقدس الشريف.

٧ يعود إنشاء الزاوية لعهد المماليك، فقد قام ببنائها القاضي فخر الدين محمد بن فضل الله سنة ٧٣٠ هجرية (١٣٢٩-١٣٣٠ ميلادية) لمزيد من المعلومات أنظر رائف نجم وآخرون، **كنوز القدس**، مؤسسة آل البيت، عمان، ١٩٨٣، ص ١٩١.

القرن المنصرم، فتولّى المنصب بعده الشيخ حسن "أبو السعود"، وهو صهر الكاتب (زوج أخته)، وكان آخر مفتٍ للشافعية في القدس في عهد الانتداب البريطاني، وقد عرف بدوره الوطني البارز، وبقربه الشديد من الحاج أمين الحسيني.[٨] وارتبطت عائلة "أبو السعود" بعلاقات مصاهرة مع عائلات مقدسية مختلفة، أوثقها، حسب ما يقول الكاتب، مع عائلة الخالدي، كما ارتبطت بعلاقة مصاهرة مع عائلة القدوة في خان يونس، إذ تزوجت زهوة "أبو السعود"، وهي عمّة الكاتب، من عبد الرؤوف القدوة، وأنجبت منه محمد عبد الرحمن المشهور باسم ياسر عرفات (أبو عمّار).

دخل فؤاد في مدرسة (كتّاب) الشيخ محمد الصالح[٩] وعمره ست سنوات، ثم التحق بالمدرسة السلطانية حتى الصف الثامن، ليدخل قبل الحرب العالمية الأولى بدار المعلمين سنة ١٩١٥، وخلال الحرب انضم للجيش العثماني، حيث التحق كضابط صغير (مرشح)، لينضم بعدها للثورة العربية الكبرى التي أعلنها الشريف حسين ضد الأتراك العثمانيين، فالتحق بالقوات التابعة لقيادة القائد العراقي ياسين الهاشمي، وقد شارك قوات الثورة في دخول دمشق، ثمّ عاد للقدس سنة ١٩١٨، وعمل مأمور مخزن في القيادة العسكرية البريطانية التي شغلت مبنى المسكوبية منذ دخول قوات الاحتلال البريطاني للقدس أواخر سنة ١٩١٧، وكانت وظيفته كما وصفها بكلماته: "أستلم الألبسة العسكرية العتيقة وأسلم مثلها ألبسةً جديدة." ثم عمل مسؤولاً عن المشروبات الروحية في الكنتوري بالقدس. في سنة ١٩١٩ عاد ليكمل تعليمه في دار المعلمين فتخرَّج منها سنة ١٩٢١. وفي السنة نفسها عُيِّن بدائرة المعارف الفلسطينية مدرساً في خان يونس، ثم نقل للتدريس في غزة في السنة التالية (١٩٢٢)، ليعود بعدها (١٩٢٣) للعمل في القدس والتدريس في المدرسة البكرية، ثم تنقل خلال مدة تقرب من خمسةٍ وعشرين عاما للتدريس في مدارس البيرة فسلوان فمدرسة قرية لفتا، حيث مكث مدة عشرين عاماً فيها، وهي المدة الأطول خلال سبعة وعشرين عاماً قضاها معلماً خلال الانتداب البريطاني، لينتهي به المطاف مديراً لمدرسة سلوان من ١٩٤٣ وحتى النكبة الفلسطينية سنة ١٩٤٨. انقطع بعد النكبة عن التدريس أربع سنوات، عازياً ذلك لامتناع جميل عبد الهادي عن تعيينه في سلك وزارة التعليم الأردنية لأسباب شخصية، رغم تقديمه عدة طلبات للعمل في سلك التعليم التابع للوزارة. وبعد رفض طلباته المتكررة انضم سنة ١٩٥٣ لمدارس وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين، حيث عمل مدة سبع سنوات معلماً في المدرسة التي أقامتها وكالة الغوث في حارة اليهود بالبلدة القديمة لأبناء اللاجئين الفلسطينيين، وبقي فيها إلى أن تقاعد. توفي "أبو السعود" في القدس عام ١٩٨٢، ودفن فيها.

ذكريات العهد العثماني

لا يبدو العهد العثماني عهداً سعيداً في ذكريات "أبو السعود"، فهو لا يذكر عنه سوى قصصٍ دالّة على الفقر وتخلُّفِ التعليم وسياسات الظلم والقهرِ من قبل الحكام الأتراك، ورغم أن بعض هذه القصص مبالغٌ فيها، ولا يمكن أخذها كما وردت، كونها تتناقض مع أحداثٍ ومعلوماتٍ أخرى أوردها الكاتب في مواضع أخرى، إلاّ أنّها تعكس صورةً قريبة لأحوال القدس كما عكستها مذكرات ويوميات أخرى تتطرق لنفس الفترة.[١٠] يقول "أبو السعود" أنّ الأحوال قبل دخول الدولة العثمانية الحرب كانت جيدة، وأن العائلة الواحدة كان يكفيها دينارٌ[١١] واحدٌ خلال الشهر لتأمين ما تحتاج إليه من حاجات معيشية، ولكن مع دخول الدولة الحرب تغير كل شيء وعم البلاء والغلاء، "وممّا زاد الطينة بلّةً، أن جاء الجراد فأكل الأخضر واليابس، وقد غطّى الشمس، ثم وضع بيضه وفقّس، فلم يبق في البلاد أي شيءٍ

٨ عمل الشيخ حسن في المجلس الشرعي الإسلامي الأعلى منذ بداية تأسيسه عام ١٩٢١. فكان واعظاً للسجون في القدس (١٩٢٢)، ثمّ مفتشاً للمعاهد الشرعية (١٩٢٧) فقاضياً للرملة (١٩٣١)، فأميناً عاماً لجمعيات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (١٩٣٥)، مع وظيفته مفتياً للسادة الشافعية بعد وفاة عمه طاهر سنة ١٩٢١. عزله الإنجليز من عمله بالمجلس سنة ١٩٣٧، وضايقوه، فانضم للحاج أمين في لبنان وسورية، وبقي معه خلال الحرب العالمية الثانية، ثم هرب من وجه الحلفاء في نهاية الحرب ولجأ لمصر مع من لجأ من الفلسطينيين، وشارك في الهيئة العربية العليا ونشاطاتها منذ تشكيلها سنة ١٩٤٦، وبعد النكبة تولى منصب نائب رئيس المجلس الوطني الفلسطيني الأول الذي عقد في غزة برئاسة المفتي وكان وزيراً في حكومة عموم فلسطين، وبقي في القاهرة إلى أن توفي سنة ١٩٥٧.

٩ أصبحت لاحقاً كلية روضة المعارف.

١٠ مثل مذكرات إحسان الترجمان التي نشرها سليم تماري تحت عنوان **عام الجراد الحرب العظمى ومحو الماضي العثماني من فلسطين** (مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ومؤسسة الدراسات المقدسية، رام الله، ٢٠٠٨. أيضاً يوميات خليل السكاكيني، الجزءان الأول والثاني (موسسة الدراسات المقدسية، ٢٠٠٣ و٢٠٠٤).

١١ لا يستخدم «أبو السعود» أسماء قطع النقد بدقة، فهو غالباً يستخدم الدينار في حديثه عن النقود في كافة العهود دون الإشارة للاختلاف بينها.

أخضر." ويتحدث "أبو السعود" عن تلاعب التجار بالعملة العثمانية "البنكوت" التي أصدرتها الدولة، وتخفيضهم لقيمتها، حتى أصبحت ورقة المئة قرش تصرف بعشرين فقط، ممّا جعل التبادل التجاري معتمداً على العملة الذهبية، والتي لم يكن غالب الشعب يملكها.[١٢]

يروي "أبو السعود" أنه بعد إعلان الشريف حسين الثورة العربية على الأتراك (سنة ١٩١٦)، وكان وقتها طالباً في دار المعلمين، دخل على الطلاب مساعد المدير قائلاً لهم "شريف مكة قام يحارب الدولة العثمانية في أحرج أوقاتها، هذا عاصٍ يجب إعدامه، وصار يتفوه بكلمات نابية بحق شريف مكة. قلت له إن شريف مكة قام ضد الحكومة لأننا يومياً نأتي لباب الخليل بالقدس فنرى ستة من خيرة العرب مشنوقين لأتفه الأسباب، وثاني يوم ننزل لباب العمود فنرى أربعة أشخاص مشنوقين أيضاً[١٣]. أحسنوا للعرب فالعرب تكون معكم، فقال لي إذاً أنت من حزبه، فهجم علي وطرحني أرضاً وصار يدوسني بأرجله إلى أن أغميّ عليّ." ويستطرد "أبو السعود" في رواية قصته فيقول أنه حوكم عسكرياً أمام الديوان العرفي بمبنى التليانية[١٤]، ولكن صغر سنه آنذاك (١٧ عاماً) قَصَرَ عقوبته على الجلد أربعين جلدة، كما تمّ تجريده من رتبة "كوجك ضابط"، أي مرشح، إلى مجرد نفر عسكري، وتم إرساله إلى جبهة كليبولي بالدردنيل، بيد أنه استرجع رتبته بعد ثلاثة أشهر، ثم انضم لقوات الثورة العربية التي قطعت على الأتراك خط الرجعة من حوران، ودخلت الشام تحت قيادة الأمير فيصل.[١٥]

لا يبدو جمال باشا، المعروف بالسفّاح، فيما يرويه "أبو السعود" عنه قائداً عسكرياً محبوباً، إذ يورد قصةً حول تصرفه مع أحد الجنود، والذي تذمّر من الطعام المقدم للجنود، فأمر الباشا بحبسه، ثم أطلقه بعد أيام بعد أن هدده بالسحق إن عاد للاعتراض. ويقارن "أبو السعود" تصرف جمال باشا هذا مع ما رآه هو لاحقاً من تصرفات القادة الإنجليز، والذين كانوا يعطون جنودهم كامل الحرية لقول ما يريدون.[١٦]

يصف "أبو السعود" في إحدى قصصه عقليات الناس في فترة الحرب العالمية الأولى، ومنها قصة تتعلق بالموقف من لبس البرنيطة الغربية، فيقول أن الحكومة أعطته ملابس عسكرية، وألبسته "الأنورية"[١٧] على رأسه، وكانت الأنورية هذه تشبه البرنيطة شبهاً عظيماً:

> "ومرة لبست بدلتي العسكرية....ولبست "الأنورية"، وذهبت لدائرة الأوقاف بالقدس لأخذ استحقاقي من مخصصات قمح الخليل، فطلبت من الموظف في ذاك الزمن الحج عمر طهبوب، وهو زوج عمتي، فقلت له أعطني مخصصاتي من قمح الخليل، فحملق فيّ لمّا رآني ألبس "الأنورية"....
>
> - قال لي: من أنت؟
> - قلت له: أنا فؤاد "أبو السعود".
> - قال لي: لقد هززت بدني، والله لن أعطيك مخصصاتك وأنت لابس هذه الكفرية.[١٨]
>
> فهرعت بعدها إلى الدار وغيرت ثيابي وجئت له ثانية، فلما رآني قال لي الآن دخل الإيمان في قلبك، وأعطاني ورقة بما أستحقه."

التعليم في القدس أواخر العهد العثماني

يسرد الكاتب انطباعاته عن التعليم وعن بعض مشاهير المعلمين في القدس أواخر العهد العثماني، فيقول أن معظم المعلمين في هذا العهد ممن ليس لهم أية "خبرة في أصول التعليم، إذ كان معظمهم سخيفاً في تعليمه للغاية، وكان جافاً، [و]أسلوبه عقيماً، مما هيئ لكثير من الطلاب ترك التعليم،" ويضرب مثلاً على ضعف التعليم بأنه في إحدى زيارات السيّاح الأجانب لمدرسة الشيخ محمد الصالح صدف أن سأل أحدهم أستاذاً في المدرسة عن عدد سكان فلسطين، فأجابه بأن عددهم ٢٦ كيلو متراً.[١٩] ويتطرق لعبد السلام كمال، معلم اللغة التركية في المدرسة، ويصفه بأنه لم يكن يفهم من أصول التعليم والتربية شيئاً، وأن أسلوبه كان جافاً "إذ أنه كان يعطينا كل يوم مئة كلمة تركية لحفظها واستعمالها، فلم يتمكن

١٢ ص ٢٠٩-٢١٠.

١٣ هذه الأعداد مبالغ فيها كثيراً. فالإعدامات لم تكن يومية.

١٤ نسبة لإيطاليا. حيث أن المبنى من أملاكها.

١٥ تتناقض هذه القصة مع قوله في ترجمته لنفسه أنه انضم للجيش العثماني سنة ١٩١٨. بينما القصة حصلت سنة ١٩١٦. وهو يخطئ في تحديد تاريخ ثورة الشريف حسين إذ يقول أنها كانت سنة ١٩١٥.

١٦ إنّه من الواضح أنّ الأتراك لم يكونوا في صورة إيجابية في ذكريات «أبو السعود». بينما تنوعت صور الإنجليز بين الإيجابية والسلبية. كما سنرى في عرضنا اللاّحق.

١٧ نسبة لأنور باشا. أحد زعماء الاتحاد والترقي البارزين.

١٨ نسبة للكفر بالإسلام. على اعتبار أنها تقليد للكافرين.

١٩ ص ٢-٣.

أي واحد من الصف من حفظ هذه الكلمات."[٢٠]

وينتقل بعدها للحديث عن الوضع في المدرسة السلطانية، فيقول أن كل مدرسيها كانوا من الأتراك، الذين لم يكونوا يفهمون من اللغة العربية شيئاً، ولم يكن معهم سوى مدرس عربي واحد هو الشيخ موسى البديري،[٢١] ويقول "أبو السعود" أنّ الشيخ البديري تخرج من جامعات استانبول في أواخر عهد الأتراك العثمانيين، ليدرّس بعد تخرجه في المدرسة السلطانية (الإعدادية) بالقدس، وكانت مدرسة حكومية. وبحسب "أبو السعود" فإنَّ الشيخ البديري كان لا يعرف الرحمة في تدريسه، "فكان الطلاب يخشونه أكثر من خشيتهم لله."[٢٢] وفي المذكرات قصتان حول الأسلوب الخاطئ الذي مارسه الشيخ البديري في تدريسه، وهو أسلوب يصفه الكاتب ب"الإرهابي."[٢٣]

ويتحدث "أبو السعود" أيضاً عن الشيخ حسام الدين جار الله[٢٤] فيقول أنّه كان يدرِّس الجغرافية في المدرسة بين أعوام ١٩١١-١٩١٤، وأنّه لم يكن يفقه من أصول التعليم الحديث شيئاً، إذ كان يحفظ الدرس كالطلاب، وأنّه كان يستعمل الضرب في تعليمه. والواضح من ذكريات "أبو السعود" ومن القصص العديدة التي أوردها أنّ استخدام الضرب في التعليم كان شائعاً للغاية، وأنّه كان سبباً في بغض التلاميذ للمدارس والتعليم، ونفورهم منها، ونعثر في سيرة حياة التربوي المقدسي المعروف خليل السكاكيني إعراضه عن استخدام أسلوب الضرب في مدرسته الدستورية، ومنعه المدرسين من استخدامه، مما مثّل وقتها إصلاحاً للتعليم وخروجاً عن الأساليب التقليدية التي كانت سائدةً ورائجةً فيه.

التعليم في عهد الانتداب البريطاني

هناك استنتاجات مختلفة للكاتب حول التعليم في عهد الانتداب البريطاني، فهناك تصوير سلبي للعلاقة بين المعلمين ومديري المدارس، وبين المعلمين وأغلب المفتشين العرب، وهناك الصورة الإيجابية لمدير التعليم الإنجليزي المستر بومن، ولخليفته المستر هوكبن، ولآخرين من الموظفين الكبار في دائرة التعليم مثل خليل السكاكيني وأحمد سامح الخالدي.

حسب "أبو السعود" فقد كان المعلم في ذاك العهد "لا قيمة له، محتقر جداً، وكانت الحكومة لا تعيره أي اهتمام، فكان ينقل من مقر عمله لأتفه الأسباب .... وكنا معشر المعلمين درجة خامسة .... [و]أعلى راتب لها اثنا عشر ديناراً أو ١٥، وبعدها لا يحصل على أي زيادة لراتبه" مهما أمضى من سنين في الخدمة.[٢٥] ويستطرد "أبو السعود" بالقول أن راتب معلم الدرجة الخامسة كان أقل بكثير من راتب موظف الحكومة من نفس الدرجة في الدوائر الأخرى، وأنّ هذا التمييز لم يعدّل إلاّ بعد التهديد بالإضراب من قبل المعلمين العرب الذين عقدوا اجتماعاً عاماً حول الموضوع في يافا وأمهلوا الحكومة شهراً للاستجابة لمطلبهم، فاستجابت قبل نهاية الشهر.

يعزو "أبو السعود" سوء أحوال المعلمين في العهد البريطاني إلى كونهم فقراء محتاجين للوظيفة، "فمعظمهم كان جباناً يخشى مدير المدرسة والمفتش أكثر من خشيته للّه." وحسب التفصيلات التي أوردها، فقد كان العديد من المفتشين[٢٦] ومديري المدارس يكتبون لإدارة التعليم تقارير سيئة بحق المعلمين، وكان المديرون تحديداً يرهقون المعلمين بالعبء التعليمي، إذ "كان يُعهد إلى المعلم حين توزع عليه الدروس أسبوعياً ٣٥ حصة، أي أن المعلم يجب عليه أن يعطي يومياً سبع حصص متعاقبة بلا راحة."[٢٧] ويروي "أبو السعود" قصة خلافه حول هذه القضية مع مديره في مدرسة لفتا، عيسى أهرام، حيث عيّن له ٣٥ حصة في الأسبوع، في حين عيّن لنفسه ٨ حصص فقط. وقد رفض "أبو السعود" تنفيذ ذلك واقتصر على تدريس ٢٨ حصة، ودخل في خلاف مع المدير حقق فيه مفتش التعليم، واتخذ قراراً بإعطائه ٢٨ حصة، وللمدير ٢٠ حصة، ولسائر المعلمين ٢٩ حصة.

من ناحية أخرى، نجد صورة إيجابية لاثنين من المسؤولين العرب، خليل السكاكيني وأحمد سامح الخالدي، وصورة إيجابية أخرى لدور المسؤولين الإنجليز في حقل التعليم. بدأت علاقة "أبو السعود" بالسكاكيني حين كان طالباً في دار المعلمين وكان الأخير مديراً لها، ويدّعي "أبو السعود" أنّه كان ينسخ خطابات السكاكيني بالمدرسة مستخدماً طريقة "hand short" ويقدمه "له ليقرأه، فيرى أنّه لم يترك شيئاً ممّا ألقاه من علمه ومواعظه المفيدة، فكان يتعجب ويقول للمعلمين

٢٠ ص ٣.

٢١ ص ٤.

٢٢ ص ٥.

٢٣ ص ٤-٥.

٢٤ ص ٥.

٢٥ ص ٣١.

٢٦ مثلاً يصف «أبو السعود» المفتش المساعد عفيف العطعوط بأنه كان فظيعاً وأنه كان يتسلّط على المعلمين ويروي قصصاً عن ظلمه وسوء معاملته للمعلمين. أنظر ص ٦٧-٧٠.

٢٧ ص ٣٣.

إنّ هذا "أبو السعود" يريد أن يحصي عليّ أنفاسي."[٢٨] يبدي "أبو السعود" تقديره الكبير للسكاكيني، فيقول أنّ إدارة المعارف لم تر مثله، "كانت البسمة لا تفارق شفتيه، وكان دائماً يمزح مع المعلمين، وكان أخاً وصديقاً لهم، وحين ما كان يعطي دروسه بالصف كان الطالب لا يشعر بالملل، وكان درسه من ألذ الدروس،" ويصفه برقة الإحساس وبأنه عطوفٌ شفوق حتى تجاه القطط الصغيرة.[٢٩] أمّا أحمد سامح الخالدي فقد كانت له يدٌ كبيرة في إدارة المعارف العامّة، وكان لا يبخل على"أبو السعود" بالمساعدة، إذ يوجد قرابة كبيرة بين عائلة الخالدي وعائلة"أبو السعود"، إلى درجة أنهما كانتا كعائلةٍ واحدة.[٣٠]

وعن دور المسؤولين الإنجليز فيقول "أبو السعود":

> "يجب أن نذكر للتاريخ وللجيل القادم أن مدير المعارف في فلسطين زمن الانتداب كان يحافظ على حقوق المعلم، ويدافع عنه، وحينما تنسب أي تهمة للمعلم كان يعطي المعلم نصف راتب له طوال المدة التي كان يسجن بها، وبعد خروجه من السجن يأخذ جميع النصف الآخر من راتبه الذي كان قطع."[٣١]

ويروي "أبو السعود" أن عمل مدير التعليم هذا اعتبر عند رؤساء دوائر الحكومة الآخرين تشجيعاً للإرهاب، فعقد اجتماع بين المسؤولين نوقشت فيه القضية، ودافع مدير المعارف عن سياسته بأنه لا يستطيع التخلي عن موظف خدم التعليم سنوات طويلة لأتفه الأسباب، ولا يجد مبرراً لجعل عائلته تموت من الجوع. وحسب "أبو السعود" فقد أقر المجتمعون صحة رأيه. ولا نعرف مصدر هذه القصة التي يرويها الكاتب، ولكن المهم هنا نظرته الايجابية لمديري التعليم الإنجليز.

يزودنا "أبو السعود" بمعلومات عن المدارس التي عمل بها، فمدير المدرسة البكرية حين عمل بها سنة ١٩٢٣ كان كمال الخطيب، الذي "كان لا يفهم من أصول التعليم الحديث شيء، وكنا نرى تقاريره السرية بحق المعلمين، ظهر لنا أنه عمره ما مدح بمعلم قط. وكان كل يوم يتمشكل مع معلميه فآتي وأصلحهم."[٣٢] أمّا مدرسة لفتا الأميرية فكانت سنة ١٩٢٦ مؤلفة من الصفين الأول والثاني ثمّ توسعت للصف الرابع، وكان مديرها الأول سليم الجاعوني، وهو خريج مدرسة نيتر الزراعية، وكان يتقن اللغات الفرنسية والعبرية والإنجليزية.[٣٣] ثمّ تولّى عيسى أهرام، من القدس، إدارتها لاحقاً، وهو يحمل شهادة المترك البريطاني، بينما كان "أبو السعود" يحمل شهادة دار المعلمين وشهادة حكومة فلسطين الثانوية العليا. أمّا مدرسة البيرة فكان مديرها سنة ١٩٢٣ جمال العوري، وكان "أبو السعود" يدرِّس فيها اللغة العربية، وكانت مدرسة الفرندز المجاورة تدعو معلمي مدرسة البيرة لحضور نشاطاتها.

يتطرق "أبو السعود" للحديث عن مدرسة سلوان، فيقول أنها كانت واقعة في سلوان التحتا، وكانت مكونة من غرفتين، واحدة كبيرة والثانية صغيرة، وأنّ الشيخ محمد الغول كان يدرّس معه في المدرسة، "وكان فقيهاً ويحسن القرآن جيداً." وقد أقام "أبو السعود" حفلةً للأهالي قدّم فيها الطلاب عروضاً مختلفةً نالت الاستحسان، فطلب منهم بناء مدرسة أكبر، فوافقوا وجمعوا مبلغ ٣٠٠ جنيه، وأخذ المختار حسين موسى على عاتقه إنجاز بناء أربعة غرف جديدة للمدرسة.[٣٤] وحين عاد "أبو السعود" للتدريس في سلوان بعد عشرين عاماً أقنع أغنياء القرية ببناء مدرسة كبيرة تتسع للعدد المتزايد من الطلاب، فقاموا ببناء المدرسة الكبيرة في رأس العامود لتخدم أبناء المنطقة.

يكتب "أبو السعود" عن التعليم في القضاء الجنوبي من فلسطين[٣٥]، فيقول أنّه كان مهملاً، وأنّ الحكومة قررت زيادة المدارس لتقويته، ولكن عدد المعلمين كان قليلاً جداً، ممّا دفع الحكومة لتعيين معلِّمين من بين خريجي الأزهر، وعُهد إليه تدريب هؤلاء على كيفية تحضير الدروس وإلقائها. ويروي قصة طريفة حول أحد هؤلاء المدرسين والذي كان يعطي درساً في الحساب أمام لجنة من إدارة المعارف مهمتها تعيين معلمين من هذه الفئة، فابتدأ درسه بالقول: "أيها الطلاب الكرام اعلموا وفقني الله وإياكم أنَّ الحساب مفيد، والحساب هو ضم كميةٍ إلى أخرى من نوعها، مثال ذلك لو جمعنا ١١٥٠ رطل بن مع ١٥٢٠ رطل سكر كم يكون المجموع؟ فأجابه أحد الطلاب يا أستاذ القهوة طلعت حلوة، عندها استلقت اللجنة على ظهرها من الضحك."[٣٦]

---

٢٨ ص ٤٣.

٢٩ ص ٤٤.

٣٠ ص ٦٩.

٣١ ص ٨٥-٨٦.

٣٢ ص ٥٦.

٣٣ ص ٤٠.

٣٤ ص ٧٣-٧٤.

٣٥ يشمل هذا القضاء غزة، رفح، خان يونس، المجدل، عسقلان، وبئر السبع.

٣٦ ص ٢٠٨.

عبد الله خليل حمودة "صاحب البارودة الألمانية"

الزاوية الفخرية

يخصص "أبو السعود" جزءاً من مذكراته للحديث عن "الزاوية الفخرية،" فيروي قصصاً وأحداثاً عديدة حصلت فيها، ومنها ما حدث في بداية الحرب العالمية الأولى (السفربرلك) بين الشيخ أسعد الشقيري، مفتي الجيش الرابع، وبين الشيخ ياسين "أبو السعود" (عمّ المؤلف) وصالح المحمد الشبل، حيث، حسب أقوال الكاتب، وشى الشيخ أسعد لقائد الجيش جمال باشا، بالأخيرين[٣٧]، وكانا من كبار زعماء عكّا، فأمر الباشا بنفيهما وحبسهما بالقدس، فبقيا فيها مدة الحرب، وقد قضى الشبل أربع سنوات الحرب في الزاوية الفخرية. وبعد الحرب، على ما يرويه الكاتب، حضر الشيخ الشقيري للزاوية وصالحهما. ويحدثنا الكاتب عن محمد الصالح الشبل، وهو شخصية عرفت بولائها للمعسكر الحسيني (المجلسيين) خلال الانتداب، فيقول أنه خلال وجوده منفياً في القدس كان يصلي الأوقات الخمسة، ويصلي الفجر بالمسجد الأقصى على المذهب الشافعي. ثمّ يتطرق لمقتله فيقول أنّه بعد أن رجع إلى مسقط رأسه عكا من القدس، فوجئ وهو نازل من بيته لصلاة الفجر باثنين يهويان على رأسه ببلطة فيخِّر صريعا، ويقول "أبو السعود" أنّ البوليس كشف أمر الجناة، فتبين أنهما اثنان من الدروز أرسلهما رئيس العمال بحيفا سامي طه، ويكتب رابطاً بين الحدثين أنّ سامي طه قتل بعدها مع سبعة من أتباعه. وهذه الاستنتاجات من الراوي مطعونٌ في صحتها لأنها تناقض الوقائع التاريخية الثابتة، إذ إنّ مقتل صالح المحمد الشبل كان عام ١٩٣٣، حسب ما يرويه عجّاج نويهض[٣٨]، بينما كان مقتل سامي طه في ١٢ أيلول سنة ١٩٤٧، وقد قتل قرب منزله في حي الحليصة بحيفا وحده ولم يقتل معه أي شخص آخر. ولم يكن بين الحادثتين على ما ترويه كل المصادر المتوفرة عن تلك الفترة، أية صلة أو علاقة، ويشك في دور لسامي طه في مقتل الشبل لأنّ طه لم يكن آنذاك بارزاً في جمعية العمال العرب بحيفا، فقد كان بروزه في الأربعينيات حيث تولّى فقط في أوائل ١٩٤٤ أمانتها العامة، وقد استمر أميناً عامّاً للجمعية إلى حين استشهاده غدراً.[٣٩] وهذا التناقض بين رواية "أبو السعود" لمقتل الشبل وعلاقة سامي طه به، وتناقضات أخرى له في حوادث وقصص رواها، وبين الثابت في السجل التاريخي، يستوجب وقفةً منهجية تتعلق بكتب الذكريات وروايات التاريخ الشفوي، فرغم فوائد هذه الكتب والروايات في قراءة ودراسة وكتابة التاريخ الفلسطيني، إلاّ أنّها تستوجب من الباحثين عدم الاقتصار عليها، ومقارنتها مع المصادر الأساسية المنشورة وغير المنشورة، ممّا يجنِّبهم الاعتماد على الذاكرة وحدها، وما تحمله رواياتها من الخطأ والنسيان والاضطراب بين المعلومات واختلاط الأحداث بعضها ببعض.

يتحدث "أبو السعود" عن ضيوف الزاوية الفخرية، فيقول أنّه كان ينزل فيها عظماء الرجال في العالم العربي وقد نزل فيها أحمد السنوسي الذي حارب الطليان عشرين عاما، "وكنا نطبخ له ثلاث إلى أربع أشكال من الطعام وكان يقول لنا لا أحب أكل إلا شكل واحد، هذه هي طريقتنا السنوسية. لا نأكل إلا شكلاً واحداً فقط.

٣٧ وجهت اتهامات عديدة للشيخ أسعد بأنه وشى بزعماء من الحركة العربية المناهضة لحكومة الاتحاد والترقي والساعية لاستقلال العرب آنذاك عن الدولة العثمانية. وأنّه كان سبباً في إعدام عددٍ منهم، على ابنه أحمد. مؤسس منظمة التحرير الفلسطينية لاحقاً، ينفي في مذكراته هذه التهم عن والده.

٣٨ راجع: نويهض، عجّاج. **رجال من فلسطين**. بيروت: منشورات فلسطين المحتلة، ١٩٨١، ص ١٥٩.

٣٩ عن سامي طه الحمران ابن عرّابة جنين راجع: الحمد، د. فائز فارس محمد. **كتاب عرّابة الأول (الناس)**. إربد، الأردن: دار الأمل، ١٩٩٥، ص ٥٨٣-٥٩١.

أقام ثلاثة أشهر ثم رحل إلى الحجاز وتوفي فيها."[٤٠] كما نزل في الزاوية محمود الفاعور الذي "حارب الفرنسيين مدة طويلة، وطلبته فرنسا من بريطانيا فرفضنا تسليمه وكفلناه بمائة ألف دينار فلسطيني."[٤١] ونزل بها كلاً من المجاهد التونسي عبد العزيز الثعالبي وقد بقي أكثر من سنة، ومحمد زبارة مندوب اليمن في المؤتمر الإسلامي العام المنعقد بالقدس سنة ١٩٣١، وقنصل أفغانستان السيد صادق المجددي، وكان يحضر كل سنة من مصر في الصيف للاعتكاف فيها.[٤٢]

صورة الإنجليز في ذكريات "أبو السعود"

لا توجد صورةٌ واحدةٌ متماثلةٌ للإنجليز في ذكريات "أبو السعود"، فهناك الإنجليزي الكاره للعرب، مسلمين ومسيحيين، وهناك الإنجليزي المنصف والعادل، والذي يتمثّل بشكل أساسي في المستر بومن، مدير إدارة التعليم، وخليفته المستر هوكبن، كما عرضنا لهما خلال الحديث عن التعليم في عهد الانتداب. وهناك أيضاً الإنجليزي الأرستقراطي، الذي ينفق بسخاء وكرم كي يحفظ مجد عائلته، مثل الكابتن سكوت ابن عم ملك بريطانيا العظمى. كما يوجد صورٌ أخرى، فهناك الإنجليزي الظالم للعرب والقامع والمطارد لهم ولرجال ثورتهم، المتمثل برجال المباحث والبوليس.

تعرض صور الإنجليزي الكاره للعرب في الفترة الأولى من الاحتلال البريطاني لفلسطين، ثمّ تختفي من الذكريات هذه الصورة السلبية لتعود خلال الثورة العربية الكبرى (١٩٣٦-١٩٣٩). من الصورة السلبية ما يرويه "أبو السعود" عن حادثة شهدها خلال عمله مع الجيش البريطاني أوائل الاحتلال:

> "كنت واقفاً في إحدى الطاقات بالمسكوبية، فمر رجل عربي أعمى يصيح للّه يا ناس لأجل المسيح تصدقوا عليّ، فجلبت له رغيفاً ممّا يأكله البوليس والجيش، فناولته للفقير، فلما استلمه رآني أحد أفراد الجيش البريطاني وأنا أسلمه الرغيف، فحالاً نزل هذا الجندي من الطاقة واخذ الرغيف من الشحاذ ورماه في سلة الزبالة ثمّ بال عليه، فقلت بالإنجليزية:
>
> - ما هذا العمل الطائش؟ هذا البائس الفقير هو على مذهبك ودينك، هو مسيحي، فكيف تعامله هذه المعاملة؟
> - فأجابني أليس هذا عربياً؟
> - قلت له بلى.
> - قال لا يستحق هذا لأنه عربي."[٤٣]

ويروي "أبو السعود" قصةً أخرى تتعلق بحاكم القدس كيث روش، والذي عامل الشيخ حسن "أبو السعود" معاملةً سيئة، وأمر باعتقاله، ممّا أثار علماء القدس وجعلهم يحتجون بشدة على مثل هذه المعاملة لعلماء المسلمين، ولم ينفض الإشكال إلاّ بعد تدخل المفتي أمين الحسيني لدى المندوب السامي البريطاني.[٤٤]

حول أحوال الفلاحين والقرى

لقد شهد "أبو السعود" نتيجة لعمله معلماً في عدة قرى ومدن فلسطينية أحوال الناس وأوضاعهم، ولاحظ طرق تفكيرهم. وقد كتب في ذكرياته عدداً من القصص والحوادث التي تضيء جوانب من هذه الأحوال. والصورة العامّة التي تعكسها قصص الكاتب أن القرى كانت تعيش حالةً من الفقر والجهل، ولكنّ أهلها مع ذلك حافظوا على القيم العربية الأصيلة كالكرم والمروءة والشهامة.

تعكس قصةٌ ظريفةٌ حدثت مع الكاتب في قرية لفتا صورةً عن أحوال الريف وأهله وقدرتهم على كتم الأسرار[٤٥]، فمرةً حين دخل الصف الرابع الابتدائي وجّه

٤٠ ص١٤.

٤١ ص ١٥. ومن الواضح المبالغة في المبلغ. هذا إن كان هناك كفالة أصلاً.

٤٢ ص ١٥.

٤٣ ص ٢٠.

٤٤ يوجد بين أوراق المجلس الشرعي الإسلامي الأعلى المحفوظة في مؤسسة إحياء التراث الإسلامي بأبو ديس ما يؤيد حدوث هذه الحادثة واحتجاج المجلس ضد تصرف كيث روش. وهناك رسالة من المفتي للمندوب حول القضية.

٤٥ لا يوجد لدينا دراسات تتعلق بالثقافة الفلسطينية ونظام الأخبار فيها والتي هي جزءٌ من الممارسات اليومية والاعتيادية للفلسطينيين. وقد استغلّ الإنجليز سهولة انتشار الأخبار في المجتمع لجمع المعلومات عن الثوّار وتحركاتهم وأنصارهم وأماكن تواجدهم. مما سهل لهم مهمة مطاردتهم وقتلهم والقضاء على ثورتهم. والمتتبع لحوادث ثورة فلسطين الكبرى (١٩٣٦-١٩٣٩) يعثر على عشرات الحوادث التي كان فيها الفلسطينيون أنفسهم من يقدم المعلومات للإنجليز إماً بشكل عرضي غير مقصود وإما بشكل مقصود.

للتلاميذ سؤالاً ليختبر ذكاءهم حول عدد العصافير التي تبقى على الشجرة بعد أن يطلق عليها الصياد النار ويصيب عدداً منها، "فلما سألت السؤال إذ رفع أحد الطلاب[٤٦] يده، فظننت أنه يريد الإجابة على سؤالي، فأشرت إليه أن يجيب، فأجابني قائلاً: يا أستاذ يوجد في دارنا بارودة ألمانية والدي خبأها في الطوالة التي يطعم بها البقر، فزجرته حالاً وقلت له أنت كذّاب، فحلف لي بالصخرة والحرم أنّ ما يقوله صحيح وأنّ البارودة في الطوالة مخبأة." ويبدو من رواية "أبو السعود" أن القصة حصلت خلال الثورة الكبرى إذ يضيف بأن حيازة السلاح في ذلك الوقت كان يقود للسجن. وتتمة القصة أن "أبو السعود" التقى بوالد عارف[٤٧] في باص لفتا-القدس، "فقلت له بيني وبينك كلمة سرّ، قرِّب لعندي، فهمست في أذنه بأن قلت له قيم من الطوالة البارودة، فعجب من قولي، وقال لي من عرفك هذا؟ قلت له أقرب الناس لك ابنك عارف."[٤٨]

اعتبر الفلاحون المعلمين في مدارس قراهم مستشارين لهم في شؤونهم المختلفة، "لأنهم كانوا يعتقدون أن المعلم له آراء مفيدة يستفيدون منها،" ويروي الكاتب قصة بهذا الخصوص تتعلق باستشارة مختار سلوان، حسين موسى، له حول دارٍ في حي مأمن الله بالقدس اشتراها بمبلغ أربعة آلاف جنيه، وقد تقدم منه الشيخ محمود الدجاني وعرض شراءها بخمسة آلاف جنيه، أي بربح ألف جنيه فلسطيني. يقول "أبو السعود" أنه أشار عليه بالاحتفاظ بالدار "لأنّ الملك ثابت، والفلوس الورقية هذه لا يعلم إلاّ الله كيف يكون مصيرها." وقد قام المختار بتأجير الدار للقنصلية الأمريكية، والتي استمرت في دفع الأجرة لصاحبها بعد وقوعها ضمن المنطقة المحتلة، ثم اشترتها في النهاية من الورثة بمبلغ ٦٥ ألف دينارٍ أردني.

خلاصة

عرضت هذه المقالة لكتاب "مذكرات معلِّم" وهدفت للتعريف ببعض القضايا التي يتطرق إليها الكتاب والمتعلقة بالتاريخ الاجتماعي الفلسطيني، وبأحوال التعليم في فلسطين خلال عهود مختلفة، والكتاب رغم أنّه لا يرقى في أهميته لدرجة كتب اليوميات التي دوّنت الأحداث يوماً بيوم، ورغم وجود العديد من الأخطاء والتناقضات فيه، إلاّ أنّه يبقى مصدراً مفيداً يساهم في زيادة معرفتنا واطّلاعنا على أحوال المجتمع الفلسطيني عبر الفترات التاريخية المختلفة.

٤٦ يبين «أبو السعود» أن الطالب هو عارف عبد الله الطويل، والمذكور ابن عم والدي طه حمّودة. والطويل لقب وليس اسماً للعائلة. وقد توفي العم عارف سنة في الأول من آذار ١٩٧١. وقد أشار «أبو السعود» لوفاته بالقول أنها حصلت حديثاً. وهذا يشير إلى متابعته لأحوال طلابه وأخبارهم.

٤٧ هو عبد الله خليل حمّودة.

٤٨ ص ٩١-٩٢.